

## أصوات من فلسطين الجديدة (٢): عودة الغائب

□ عمر برغوثي

ودون قمع، لفنان يُبدع دون رقابة خارجية أو رقابة ذاتية، لفقير يحتج ويفكر ويطالب، لسياسي يرفض أن يُضَمَّ إلى القطيع - وما أكثر القطعان في وطننا الرطب -، لجدل، لحب، لاختلاف، لتحليق، لتقد، لتجديد، لاستلها، لتواصل،... لإنسانية؟

في هذا الملف المزدوج نبحث عن الإجابات، أو نعيد طرح الأسئلة بشكل مختلف. لا نتفق بالضرورة على شيء سوى حبنا للحرية والكرامة والإنسانية، وإصرارنا على عودة الغائب/المغيّب: عودة الحديث عن فلسطين ديموقراطية علمانية، بعد أن بهت خطاب «٢٤ عاماً من الاحتلال»، عودة الحديث عن الإنسان فينا، الذي يسبق فلسطينيتنا وعروبتنا: عودة الحديث عن عودة اللاجئين لنفي ظلم تاريخي تناسيناه لاعتبارات السياسة والإتيكيت: عودة الحديث عن دورنا في صياغة هويتنا الجديدة بدلاً من تقبلها من «أعلى» دونما حراك.

وما كان لكل هذه الأحاديث أن تباح لولا مجال الحرية وحرية المجال اللذين أتاحتها لنا مجلة الأراب.

رام الله

«لماذا قتلوه؟» سألتني ناي - ابنتي التي لم يبلغ عمرها عدد أصابع يدها الصغيرة - بعدما شاهدت على التلفاز، بل عاشت ما وراء التلفاز، قتل محمد الدرة. شاهدته بفجاعة لا تليق بعمرها وبراعتها، ولكن الجريمة لم تكن لائقاً أيضاً بعمر محمد وبراعته. لم يكن بالإمكان أن أجيبها بكليشيه جاهز: فهي أدكي من أن تقبله، وأنا أكثر حساسية من أن أكتفي به. لذلك أجبت: «لأنهم لم يعودوا يفكرون كبشر؛ فالكرة أصابهم بالجنون.» لم تقتنع، ولكن دموعها الحبيسة في عينيها العسليتين الجميلتين ألهمتني عن استجوابي. لماذا؟ بقي السؤال عالماً في رأسي دون إجابة.

متى يتوقف الإنسان عن كونه كذلك؟ أو بالأحرى متى تُهَيِّم المكوّنات الأخرى لهوية الإنسان على المكوّن الأول والأهم: كونه إنساناً؟ لا بد لنا أن نَعكس السؤال على أنفسنا، قبل أن نُطرحه بجدية على الآخر: ما عمق هذا العنصر الجوهرى في تكوين هويتنا العربية - الفلسطينية؟ ألا نسمح لأنفسنا أحياناً، أو أكثر قليلاً، أن نستمرى كوننا ضحية، فنبيع لأنفسنا تجميد إنسانيتنا حين من الزمن، أو - وهذا أخطر بكثير - نعيد تعريف إنسانيتنا لتبيح لنا إتيقان دور الضحية؟ هل يُسمح للمناضل أن يقتل طفلاً من «الأعداء»، أو أن يمارس دور المضطهد (يكسر الهاء) في بيته؟ هل نوجّل صرخات المكوّنات الأخرى لهويتنا حتى ينتهي صراعنا مع الآخر؟ لِمَ نناضل؟ من أجل ماذا؟ لجزائر جديدة، أم لكوستاريكا عربية حرة أبية؟ ماذا يعنى العلم عندما تُنتج مصانع تل أبيب؟ ما هو الوطن الذي نبحث عنه بخيالنا وننتج به فعلنا ومثابرتنا؟ ماذا يعنى الوطن أصلاً إذا نتج عن تجسيد لظلم تاريخي وتاريخ غير أخلاقي؟

هل في صور الوطن الموجودة في حلمنا متسع لألوان عديدة: لإنسان حر، لامرأة تحقّق ذاتها، لطفلة تفكر وتكتشف دون إملاء